**الجامعة : المستنصرية**

**الكلية : الاداب**

**القسم : الانثروبولوجيا والاجتماع**

**اسم التدريسي : هدى كريم مطلك**

**المادة : مقدمة المدخل الى الانثروبولوجيا العامة**

**المحاضرة الثالثة عشر**

**م / المقايبس المستخدمة في تقسيم العناصر البشرية ، العنصر والتميز العنصري**

لقد جرت عدة محاولات لتقسيم سكان الارض الى عناصر و استعملت مقاييس مختلفة في الاغلب الصفات الطبيعية الظاهرة . اما المقاييس التي تستعمل الآن في تقسيم العناصر فتشمل عددا كبيرا من الصفات أهمها:

1. لون الجلد .
2. لون الشعر و كثافته .
3. لون العيون و اشكالها .
4. نسبة عرض الجمجمة الى طولها ( العرض ×100 ÷ الطول ) .
5. شكل الانف .
6. طول القامة اثناء الوقوف .
7. درجة انفتاح الشفتين و انقلابهما الى الخارج .

وهناك مقاييس اخرى كثيرة :

وكان المرجو قبل حوالي سبعين عاما ان تؤدي الدراسات التي قام بها بعض العلماء عن مجموعات الدم الى اثبات توزيعها بين سكان الارض بشكل يمكن معه اتخاذها مقياسا للتفريق بين العناصر . ولكن كثيرا من الآمال خابت الآن فلقد وجد ان كافة مجموعات الدم, وهي (A.B.AB.O.) موجودة في اغلب سكان الارض المعاصرين بنفس المعدل في التوزيع تقريبا .

وعلى أساس الصفات المار ذكرها, تقسم العناصر البشرية الآن تقسيمات عدة, فمن العلماء من قسمها الى احد عشر عنصرا, ومنهم من قسمها الى ثلاثين . أما أغلب كتب الانثروبولوجيا الطبيعية الحديثة فتقسمها الى ثلاثة او اربعة عناصر . ولقد اتفق علماء علماء الانثروبولوجيا الطبيعية الذين اجتمعوا بدعوة من (اليونسكو), كما اشرنا آنفا, على تقسيم العناصر الى ثلاثة هي (القاقازي) و (المغولي) و (الزنجبي) .

اما العنصر (الاسترالي) وهو العنصر الرابع في التقسيم الرباعي فقد اعتبروه فرعا من العنصر (القوقازي) . ويقسم كل عنصر من العناصر الثلاثة الى اقسام و فروع .

وفيما يلي ايضاح موجز لاسماء العناصر البشرية المعاصرة وصفاتها و مواطنها :

1. (العنصر القوقازي) : و يتصف افراده ببشرة بيضاء, و انوف دقيقة, وشعر متموج, و قامة يتراوح طولها بين 160 و 170 سنتيمترا, و جمجمة عريضة . ويقسم هذا العنصر الى قسمين, الاول وهو (القوقازي الحديث), و يتفرغ فروعا عدة و يشمل سكان شمال ووسط اوربا و شعوب البحر المتوسط و شرق البلطيق و آسيا الصغرى و الهند و جزر الهند الشرقية, و القسم الثاني وهو (القوقازي الحديث) او (الاسترالي) يشمل سكان استراليا الاصلين و الفدا في سيلان و الپريدرافيديين في الهند و الآينو في شمال اليابان .
2. (العنصر الزنجي) : و يتصف افراده عامة ببشرة سوداء و انوف فطساء, و شعر صوفي, و قامة يتراوح طولها بين 140 و 170 سنتمترآ, و جمجمة طويلة . و يضم هذا العنصر الذي يقسم اقساما عدة زنوج افريقيا و زنوجا ملينيزيا و جزر الاندمان و اقزام سومطرا و الملايو و بعض سكان الفلبين و جزيرة غينيا الجديدة و زنوج امريكا .
3. العنصر المغولي : وصفات افراده العامة بشرة صفراء, و انوف معتدلة الى عريضة و شعر مستقيم اسود, و قامة يتراوح طولها بين 145 الى 170 سنتمترا, و جمجمة عريضة . و يقسم قسمين : (الآسيوي القديم) و يضم الاسكيمو و الهنود الحمر و قبائل قديمة تعيش في التبت و شمال الهملايا, و (الآسيوي الحديث) و يشمل الصينيين و الكوريين و اليابانيين . و سكان سايبيريا و جزر الالوشيان و اللاب الذين يعيشون في شمال فنلندا و بعض سكان الفلبين و الاندونوسين و سكان الملايو .

**رابعا – العنصر و التمييز العنصري :**

ان تقسيم الشعوب و المجاميع البشرية مهمة شاقة و معقدة للغاية . فاغلب المقاييس المستعملة للتفريق بين العناصر غير صالحة وليس فيها واحد يمكن ان يعتبر مقنعا من حيث قدرته على تزويدنا بتعريف او تحديد لاي عنصر من العناصر البشرية, وذلك لاسباب اولها اشتراك الصفات و اختلاطها بين كافة العناصر . فليس هناك عنصر له صفة خاصة به و لا مجموعة من الصفات ينفرد بها . فالشعر الاسود مثلا صفة نجدها في كافة العناصر على الاطلاق, و كذا الجمجمة المتوسطة أو البشرة السمراء . و ثاني الاسباب ان مفهوم العناصر التي تتميز بصفات طبيعية معينة مفهوم احصائي يطبق على العناصر دون الافراد, وان الصفات التي نعتبرها مقياسا للتفريق ليست الا مزجا للمعدلات . فاذا قلنا مثلا ان طول قامة المغولي يتراوح بين 145 و 170 سنتمترا فمعنى هذا اننا توصلنا الى هذا الرقم من حساب معدلات طول القامات آلاف بل عشرات الآلاف من المغولين . وعلى هذا فاننا اولا نجد تفاوتا شديدا في صفات كثير من افراد العنصر الواحد و شذوذا كبيرا عن المعدلات . و ثانيا نجد أن بعض افراد العنصر يشبه افرادا من عناصر اخرى . فكثير من افراد العنصر القوقازي يمكن ان يعتبروا بسهولة من العنصر الزنجي و العكس صحيح . و المؤكد ان الفروق بين العناصر اقل كثيرمن اوجه الشبه بينها .

و الغلطة الكبرى التي نقع فيها دائما اننا نعتبر العناصر مجاميع مستقلة متميزة في حين اننا نعرف انه لا يوجد واحد منها استطاع ان يظهر او يتطور بصورة مستقلة, بل كلها مخلوطة . و يتضح هذا الخلط من تشابه بعضها مع البعض الاخر . وفوف هذا كله, فان قليلا جدا من افراد العنصر الواحد تنطبق عليهم كافة الصفات العامة للعنصر . ولذا فنحن لا نجد نسبة كبيرة بين افراد العنصر يمكن ان تعتبر نموذجا اصيلا له . و لنضرب مثلا على هذه الحقيقة . فالسويديون يعتبرون انقى شعوب قسم (النوردك) من العنصر القوقازي . ولكن حين قام العالمان (فورست) و (ريتزيوس) في عامي (1897) و (1898) بقياس (45) الف رجل من رجال الجيش السويدي وجد أن (11%) منهم فقط تنطبق عليهم صفات (النوردك) الخالصة, وهي الجمجمة الطويلة, و القامة الطويلة, و الشعر الاصفر, و العيون ذات الالوان الفاتحة . ولم تصل النسبة الى (29%) الا بعد تعديل مقياس الجمجمة و جعله يشمل الطويلة و المتوسطة . وحين اعيدت التجربة تحت اشراف العالمين (لندرز) و (لندبورغ) بعد ثلاثين عاما, وعلى (47) الف جندي سويدي ظهر ان (30%) من اولئك الجنود ذوو رؤوس طويلة . وعلى هذا فقد قيل ان السويديين الذين تعتبرهم المقاييس انقى (النوردك) لا يمكن ان يوصفوا باكثر من انهم (نوردك لحد ما) .

يضاف الى هذا ان هناك بعض المجموعات البشرية التي لم تتقرر تبعيتها لعنصر معين بشكل متفق عليه, مثل الپولينيزيين الذين يعتبرهم بعض الانثروبولوجين من العنصر القوقازي لان فيهم صفات تشبه صفات ذلك العنصر في حين يعتبرهم آخرون عنصرآ مستقلآ, وكذا الامر بالنسبة للـ (آينو) و (اللاپ) . و يطلق على هذه المجموعات اسم (الجزر العنصرية) .

ان امثال هذه المعضلات تاريخية و لا يمكن حلها بطريقة تصنيف تلك المجاميع لمجرد وجود شبه بينها وبين عناصر معينة . ومعنى هذا ان تصنيف العناصر لا يقدم لنا غير وصف للعناصر الموجودة فعلا و دليل على أماكن وجودها . ففي الامثلة التي مرت قد يقود التشابه الموجود بين تلك المجموعات البشرية و بين العناصر التي تصنف تحتها الى الظن بوجود علاقات حياتية بينها و بين تلك العناصر . ولكن ذلك الظن لا يمكن ان يتأيد بدون اكتشاف دلائل آثارية على هجرات تلك المجاميع . وقد أكد علماء الانثروبولوجيا الطبيعية الذين درسوا العنصر و معضلاته تحت اشراف (اليونسكو) على هذه الناحية . فجاء في تقريرهم (يعتبر العنصر باجماع آراء الانثروبولوجيين وسيلة للتصنيف او اطارا ترتب داخله الكتل البشرية المختلفة) . وانه في حدود تعريفهم للعنصر الذي أشرنا اليه سابقا (يمكن تصنيف كثير من شعوب العالم) و لكن (بسبب تعقيد التاريخ البشري توجد مجموعات كثيرة لا تنسجم مع التصنيف العنصري) .

لقد ظهرت في اوربا نظريات و فلسفات غربية تتعلق بتفوق بعض عناصر و تخلف البعض الاخر . ولقد لاقى احد تلك الاراء الغربية الذي انتشر في اواخر القرن الثامن عشر و مطلع القرن التاسع عشر رواجا و قبولا . و مفاد ذلك الرأي ان الشعوب الاوربية او (العنصر الاوربي) ارقى من العناصر الاخرى, وان العنصر الزنجي, لفرط شبه افراده بالقردة, ليس من مرتبة البشر, بل انه سلالة مستقلة . و لا حاجة بنا ان نؤكد ان هذا كله خطأ محض, وان اية دعوى بتفوق عنصر على آخر دعوى باطلة لا يؤيدها العلم و مصدرها دائما دوافع سياسية و اجتماعية . فالرد على الرأي المتقدم الذكر ان الشبه الظاهر بين الزنوج و القردة لا يتعدى كونه مظهرا خارجيا و أمرا سطحيا لا قيمة له مطلقا . كما ان الجنس البشري كله سلالة واحدة بدليل استطاعة اية مجموعة منه ان تتناسل مع الاخرى . ولو كان الزنوج من سلالة غير بشرية لما أمكن تناسلهم مع بقية افراد الجنس البشري مطلقا . اما من ناحية الكفاءة أو القابلية فلم يقم الدليل على وجود قابليات خاصة متفوقة في عنصر دون آخر . فكل العناصر ذات قابلية متساوية على خلق الحضارة او هضمها, كما ان ظهور حضارة الانسان و ازدهارها ليس من خلق عنصر واحد بعينه . و من جهة اخرى فليس في الحياة قانون مقدس او ناموس طبيعي يقضي على شعب او عنصر معين ان يظل بربريا بدائيا . فالتأخر و التخلف نتيجة لاحداث تاريخية قد يغيرها و يصححها التاريخ نفسه بعد زمن .

و شاءت بعض النظريات ان تبرر تفضيلها عنصرا على آخر على أسس معينة مثل نقاء العنصر, و سموه و قابليته على خلق الحضارة . ومن هذه النظريات (النظرية العنصرية) (Racism) . ولقد ساعد عدد من العلماء على نشر هذه النظرية في القرن التاسع, فلاقت قبولا كبيرا في كثير من الاقطار الاوربية, و بلغت ذروة مجدها في الفلسفة العنصرية النازلة, التي كانت الفلسفة الرسمية للدولة الالمانية بين عامين 1933 و 1945 . ولقد روج هذه النظرية فلاسفة المان و ابتكروا اسطورة نقاء و تفوق عنصر تخيلوه, و اطلقوا عليه اسم (العنصر الآري), و ارادوا ان يكون ممثلا في الشعب الالماني وحدة .

و تبشر (النظرية العنصرية) بالتفوق الموروث لبعض العناصر, و بان للعناصر قابليات مختلفة, وتدعي ان شيئا يدعى (عنصرا) أو (دما) هو المسبب الرئيس لكل الصفات المهمة للجسم و الروح و الشخصية و الاخلاق و التفكير, وان هذا الشيء ثابت في أصل تكوين الانسان . و فوق ذلك يعتقد علماء هذه النظرية ان (العنصر) او (الدم) ينتقل من جيل لجيل ليظهر ممثلا في الشخصية و الحضارة للشعب افرادا و مجموعات . وعلى هذا فيجب ان تظهر بين العناصر فروق, لا سبيل لتلافيها, في عقول و نفسيات افرادها .

ان العنصرية فلسفة سياسية محضة و وسيلة يلجأ اليها لاثارة عواطف الشعوب . فهي تثير الاعتزاز في نفوس الافراد و التعصب ضد العناصر الاخرى عامة . فوجود عنصر نقي خرافة مضحكة و يجب ان يعتبر كافة سكان العالم المعاصرين مخلوطين من ناحية عنصرية بشكل كبير . كما ان هناك اسبابا قوية تدعونا للظن بان سكان العالم كانوا قبل عشرة او خمسة عشر الف سنة مخلوطين كما هم الآن . فما كان أي واحد من العناصر و لا هو الآن و لن يكون في المستقبل نقيا ابدا . و من الغريب ان يظهر دعاة العنصر النقي في اوربا و هي احدى مناطق العالم التي هجنت و اختلطت فيها عناصر عدة بشكل قبو متكرر . فمن غير المحتمل ان يوجد اورپي واحد ليس في نسبة سلسلة طويلة من الامتزاج . فالعناصر ليست كالانهار تجري مياهها في مجار معينة, انما هي كالتيارات او الدوامات في مجرى مائي واحد يتبادل فيها كل واحد ما يحمله و يمتزج ماؤه بالمياه الاخرى بصورة مستمرة .

وبعين الوقت الذي تحدث فيه العنصريون عن (العنصر الآري) المتفوق تحدثوا عن شي آخر متأخر أسموه (العنصر اليهودي) . و الثابت علميا ان اليهود ليسوا عنصرآ, بل هم اجزاء من العناصر التي يعيشون معها . فالعنصر كما مر بنا هو مجموعة من الافراد يملكون صفات طبيعية مشتركة . و اليهود لا يملكون صفات طبيعية مشتركة خاصة بهم . فهم في شمال اوربا من قسم (النوردك) من العنصر (القوقازي), لهم عيون زرقاء او خضراء و جماجم طويلة و شعر اصفر, وهم في اسبانيا من قسم (البحر المتوسط الاساسي) من العنصر (القوقازي) بشعر اسود و عيون داكنة و بشرة سمراء . كما يوجد يهود صينيون و هنود و احباش, وهم في كل مكان يتفقون كل الاتفاق في صفاتهم العنصرية مع افراد العنصر الذي ينتمون اليه . و الواقع (ان اليهود ليسوا الا مجموعات حضارية لها دين عام واحد و تقاليد واحدة) .

(وقد اضطرتهم بعض الظروف الاقتصادية و الاجتماعية على ادامة وحدتهم بالعيش بمعزل عن الشعوب التي يسكنون في اوطانهم و بالتزاوج داخليا فيما بينهم, وبحصولهم على العيش